نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه

للمستشرق الفرنسي الأستاذ جيرار تروبو
استاذ فقه اللغة العربية في السوربون - باريس

لا شكَّ ان النظـام النحويّ في كل لغـة له اهمية كبرى ، لان النظام النحويّ يعبر عن بُنْيـة اللغة ويصوغ فكر الناطقين بهـا ؛ ويُمْكِنُنا القول إن النظـام النحويّ العربيّ يحتلّ محـلاً بارزا بين النُظُم النحوية الكبرى الموجـودة في العالم ، من اجل موقعـه المتوسِّط بين النظام اليوناني، في الغـرب، والنظام الهندي، في الشرق ؛ فكان مـن الطبيعيّ ان يلفت المستشرقون انظارهم اليـه ، ليدرسوا نشأته وتطوُّره .

ان المستشرق الالمـاني Merx ، الـذي نشر في منتهى القرن التاسع عشر كتابا عنوانـه « تاريخ صناعة النحـو عند السريان » ، هو الذي زعـم لأول مرة ان المنطق اليونانـي اثَّر في النحو العربي ، لان الثاني قـد اقتبس من الأول بضعـة من المفاهيم والمصطلحات .

ثـم نرى معظم المستشرقين قـد اتخذوا هذا الراي بدون تحفُّظ ؛ فقال المستشرق الفرنسـي Fleisch في كتاب ألّفـه في علـم اللغة : « انه مـن الواجب ان نشير الى تأثيرٍ يونانيّ في النحـو العربي ، فقد اقتبس الفكـرُ النحويّ العربي مفاهيم اصلية من العلـم اليوناني ، لا من النحـو اليوناني ، ولكنْ من منطق ارسطـو » .

غير انَّ المستشرق الانكليـزي Carter رفَضَ هذا الـراي في مقالة نشرها منذ عدة سنوات، وسمَّاها : « في اصول النحـو العربي » . فَبَيَّن في هذه المقالـة انّ سيبويه يستعمل في الكتـاب مجموعتين من المصطلحات : مجموعـة قليلة العدد تتضمّن مصطلحاتٍ لعلَّهـا يونانية الأصل ، ومجموعة كثيرة العـدد تتضمن المصطلحات العربيـة الاصل ، منقولة من الفقـه الى النحـو .

ومع ذلك فان المستشرق الهندي Versteegh نشر في مستهلّ هذه السنة ، كتابا عنوانه « العناصر اليونانية في الفكر اللساني العربي » ، يدافع فيه عن نظريّة التأثير اليوناني في النحو العربي ، فيعتبر ان النُحاة العرب القدامى قد اقتبسوا بضعة من المفاهيم والمصطلحات ، لا من المنطق اليوناني ، كما زعم Merx ، بل من النحو اليوناني ، وذلك بواسطة اتّصالهم المباشر باستعمال النحو اليوناني الحيّ،كما يقول ، في مراكز الثقافة اليونانية الموجودة في الشرق الأدنى بعد الفتح العربي .

فسأود في هذه المحاضرة أن افحص تلك الآراء المتناقضة في نشأة النحو العربي ؛ وهذا في ضوء كتاب سيبويه ، الذي سمّاه الناس "قرآن النحو" حسبما روى عنه النحوي الحلبي أبو الطيّب اللغوي .

* * *

ان المستشرقين ، ليُبيّنوا التأثير اليوناني في النحو العربي ، يحتجّون على العموم بأن النُحاة العرب القدامى قد اقتبسوا من المنطق اليوناني تقسيم الكلام الثلاثي ، ومصطلحات أربعة هي : الإعراب والصرف والتصريف والحركة . فينبغي لنا أولا أن نتساءل: هل كان من الممكن ، من الناحية اللسانية ، أن يكون هؤلاء النحاة قد اقتبسوا هذا التقسيم .

إنّ تقسيم الكلام أمر مهمّ جدا في كل نظام نحوي ، لانه يشترط هذا النظام ، وبالنسبة الى بُنية كل لغة،مَيّز النحاة عددا مختلفا من الاقسام . فان النحاة اليونان قد مَيّزوا في لغتهم ثمانية اقسام،وهي، حسبما قال أرسطو في كتابه في الشعر : الحرف : stoikeion

المجموع : syllabe | الرباط : syndesmos الفاصلة : arthron
الاسم : onoma الكلمة : rhema الوقعة : ptosis القول : logos

أما النحاة العرب فانهم،كما تعلمون،لم يميّزوا في لغتهم الا ثلاثة أقسام،وهي، حسبما قال سيبويه في الكتاب : الاسم والفعل والحرف .

ولكنْ ، على الرغم من الفرق الكبير الذي يظهر بين عدد الاقسام في النظامين ، يَدَّعي بعض المستشرقين ان النحاة العرب قد اقتبسوا هذا التقسيم عن المنطق اليوناني . فَلِنَسْتَطِع ان نَرُدَّ على هذا الادّعاء الفاسد ، سنبحث عن كل واحد من هذه الاقسام في النظام اليوناني ، وعن القسم المقابل له في النظام العربي .

ليس لِقِسْم الحرف اليوناني قِسْم يقابله في النظام العربي ، لأنَّ سيبويه لم يجعل حروف الهجاء قسما مستقلاً في تقسيمه، كما فعل ارسطو . وكذلك ليس لقسم المجموع اليوناني قِسْم يقابله في النظام العربي ، لان مفهوم المجموع المركّب من حرف غير مصوّت وحرف مصوّت ، مفهوم صوتيّ يختلف عن مفهوم الحرف الساكن والحرف المتحرك الذي نجده عند سيبويه .

أما قسم الرباط اليوناني فانه لا يقابلُ الا جزءًا من قسم الحرف العربي ؛ ونجد فرقا بينهما ، لأنّ الرباط عند ارسطو لفظ خالٍ من المعنى ، بيد أن الحرف عند سيبويه لفظ له معنى .

يشتمل قسم الفاصلة اليونانيّ على آلة التعريف والاسم الموصول ، وهما عند ارسطو لفظان خاليان من المعنى؛ فليس لهذا القسم قسم يقابله في النظام العربي ، لأنّ سيبويه يَعْتَبر ان الاسم الموصول اسمٌ غير تامٍّ يحتاج الى صلة، فيدخله في قسم الاسم ، كما انه يَعْتَبر ان آلة التعريف لفظ له معنى، فيدخله في قسم الحرف .

أما قسم الاسم اليوناني فانه يقابل قسم الاسم العربي ، غير اننا نجد فَرقًا بين القسمين ، لان الاسم عند ارسطو لفظ له معنى يدل على شيء ، بيد أن الاسم عند سيبويه لفظ يقع على الشيء، فهو ذلك الشيء بعينه .

وكذلك يقابل قسمُ الكلمة اليوناني قسمَ الفعل العربي ؛ فالكلمة عند ارسطو لفظٌ له معنى يدلّ على زمان ، والفعل عند سيبويه مثال اخذ من لفظ حدث الاسم ، فيه دليل على ما مضى وما

لـــم يمض ؛ غير اننا نجد فرقـــا بين القسمين ، لان السيغة غـــير المبيَّنـــة aparemphatos مضمَّنة في قســـم الكلمة اليوناني ، بيـــد أن المصدر مضمَّنٌ في قسم الاســـم العربي ، كما ان الصيغـــة المشتركة metochikon مضمَّنة في قسمي الاســـم والكلمة مما في النظام اليوناني ؛ بيـــد ان اسم الفاعل مضمَّن في قســـم الاسم فقط في النظـــام العربي .

وأخيرا، فليس لقســـم الوقعة اليوناني قســـم يقابله في النظام العربي ، لان مفهـــوم الوقعة التي تحدث فـــي آخر الاسم او في آخر الفعل ، مفهوم غـــير موجود عند سيبويه ؛ وكذلك قســـم القول ، الذي هو عند ارسطـــو مركَّب من الفاظ لها معنى ، ليس لـــه قسم يقابله في النظـــام العربي ، لأنّ سيبويه لـــم يجعل من القول قسما مستقـــلا فـــي تقسيمـــه .

فمن الناحيـــة اللسانية ، يظهر لنـــا انه من المستحيل أن يكون التقسيم العربيُّ منقولا مـــن التقسيم اليوناني ، لان عـــدد الاقسام ومضمونها يختلف فـــي النظامين اختلافا تامـــا .

ثـــم يجب علينا أن نتساءل هـــل كان من الممكن ، من الناحيـــة اللغوية ، أن يكون النحـــــاة العرب القدامى قـــد اخذوا عن النحو اليونانـــي تلك المصطلحات الاربعـــة التي هي : الاعـــراب، والصرف، والتصريـــف، والحركـــة .

يزعم أتْباع التأثـــير اليونانيّ ان كلمة الإعراب نُقلـــت من الكلمة اليونانيـــة hellenismos . مـــا معنى هذه الكلمة في اصل اللغـــة اليونانية ؟ hellenismos اســـمُ فِعلٍ يوناني تعريبه، هَلَّـــنَ شيئا تهلينـــاً ،اي صيَّره هِلّينيًّـــا .

قـــال ارسطو في كتابه في الخطابة : « ان اصـــل الكلام هو الوجه الهلّيني في التكلم" ، اي الوجـــه الصحيح الذي يحصل عليـــه بمراعاة خمســـة اشيـــاء :

١ ــ باستعمال الروابــط،اي حروف العطــف ،

٢ ــ باستعمال الكلمــات الخاصة ،

٣ ــ بعــدم استعمال الكلمــات الملتبِســة ،

٤ ــ بتمييز الأجناس في الأسمــاء ،

٥ ــ بتمييز الأعــداد فيهــا .

ويــرى فيلسوفٌ رواقيٌّ أن التهلــين هو التكلم الصحيح علــى وجــه الصناعة ، لا على وجــه العامة .

فنلاحظ أن الكلمــة hellenismos كلمــة عامة تختصّ بالكلام برمّتــه ؛ فانها اصطلاح خطابي وليس باصطلاح نحــوي .

أمــا معاني الإعراب في أصل اللغــة العربية فهي ثلاثــة : أولا الإبانــة والإفصاح عن الخواطر ، ثانيا إزالــة الفساد في الكلام ، ثالثا تغير آخــر الكلمة .

فقــال ابن جني في كتاب الخصائص : « وكــأن الاعراب مــن قولهم : عربت معدتــه اي فسدت ، كأنها استحالت مــن حال الى حال ، كاستحالة الاعراب مــن صورة الى صورة » . وقال ابــن الأنباري في كتاب اسرار العربيــة : « ان الإعراب سُمّي إعرابا لانــه تَغَيُّرٌ يلحق اواخر الكلم ، مــن قولهم : عربت معــدة الفصيل اذا تغيرت » .

والواقع أن سيبويــه يستعمل كلمة الاعراب ليَــدلّ على ما يسميه « مجاري اواخر الكلــم »،يعني التغيُّرات التي تَحدُث في آخــر الاسم المتمكــن،والفعل المضارع لاســم الفاعل . والاعراب عنــد سيبويه نقيض البنــاء الذي يدلّ على عدم التغيّر في آخــر الكلمة .

فنلاحــظ أن الإعراب كلمة تختص ببعض الكلمات فقــط في الكلام ، فانها اصطلاح نحــوي وليست باصطلاح خطابــي .

ثــم يَدَّعي انصار التأثير اليوناني أن كلمــة الصرف نُقلت من

الكلمة اليونانيـــة klisis ، وان كلمة التصريف نُقلـــت من الكلمة اليونانيـــة ptosis . ما هو السبب الـــذي دفعهم الى هـــذا الادعاء ؟ السبب هـــو ان النحاة اليونان كانـــوا يعتبرون ان الاسم ، بالنسبة الى حالته الاصلية التي هي حالـــة التسمية onomasticos ، لـــه ميل klisis الى حالات اخرى ، كمـــا ان الفعل بالنسبة الى حالته الاصلية التـــي هي حالة الحاضر enestos ، لـــه ميل الى حالات اخرى ؛ وكـــان النحاة اليونان يسمّون كـــل واحدة من هذه الحالات المتغيرة وقعـــة : ptosis

قـــال ارسطو في كتابه في الشعر : « امـــا الوقعة فهي للاســـم او الفعل ، وتدل علـــى معنى حرف « ل » او حـــرف « الى » وما اشبه ذلك ، او على الإفـــراد او الجمع او نوع كـــلام القائل ، مثل الاستفهام او الأمـــر » .

وقال في كتابـــه في الخطابة : « تَغَيُّرات الاسم المـــائل هي وقعات الاسم ، كما ان تغيُّرات الفعل المـــائل هي وقعات الفعل » .

امـــا معنى كلمة الصرف في كتـــاب سيبويه،فان هذه الكلمة تدلّ على إلحاق حـــرف النون للاسم،وللاسم فقـــط ، لان هذا الحرف علامة التمكّن ، يعني استـــقرار الكلمة في قسم الاســـم .

وامـــا معنى كلمة التصريف فَيَسْتَعمل سيبويـــه هذه الكلمة للدلالة على التغيُّرات التي تَحـــدُث في داخل الكلمة،فانه لا يستعملها أبـــدا للدلالة على التغيُّرات التـــي تَحدُث في آخـــر الكلمة .

فنلاحـــظ أن مفهوم الميـــل ومفهوم الوقعة غير موجودين فـــي النظام العربي ، كما ان مفهـــوم التمكّن ليس بموجود في النظام اليوناني .

ثـــم يزعم أتباعُ التأثير اليونانـــيّ أن كلمة الحركة تُرجِمَت من الكلمة اليونانيـــة : kinesis ، وذلك لان بعض النحـــاة اليونان حَدّدوا الوقعة بأنها حركـــة تَحْدُث في آخر الاســـم ، فيستنتجون من هذا التحديد ان الحركـــة عند النحاة العرب كانت تَـــدلّ في الاصل على

المصوت الاساسي ، يعني ذلك المصوت الذي يشير الى الوقفة في آخر الاسم ، ومن ثم استُعْمِلَت هذه الكلمة بصفة عامة للاشارة الى المصوت .

نلاحظ اولا أن مفهوم التحريك في النظام الصوتي العربي لا يتفق ابدا ومفهوم التصويت في النظام الصوتي اليوناني ؛ فان ارسطو يقسم الحروف الى مصوَّتة ونصف مصوتة وغير مصوتة ، بينما سيبويه يقسم الحروف الى متحركة وساكنة .

ثم نلاحظ ان كلمة الحركة عند سيبويه تدلّ على حركات الشفة، من الضم والفتح والكسر، او على حركات اللسان، من الرفع والنصب والجر او الخفض ، عند اخراج الصوت ؛ أَتَحْدُث هذه الحركة في صدر الكلمة ام في وسطها ام في آخرها ، فان الحركة في نظام سيبويه كلمة عامة ، لا تدلّ على آخر الاسم المعرب ، لانها تُسْتَعْمَل ايضا لتدلّ على آخر الاسم المبني غير المعرب ، ويمكن ان تكون كلمة معربة مجرّدة من الحركة ، كالفعل المضارع المجزوم مثلا .

من الناحية اللغوية ، يبدو لنا انه من المستحيل ان تكون هذه المصطلحات الأربعة منقولة من اليونانية الى العربية ، لان المفاهيم التي تدلّ عليها تتباعد في النظامين كل التباعد

* * *

يجب علينا الآن ان نتساءل: هل كان من الممكن، من الناحية التاريخية، ان يُعرف النحاةُ العرب القدامى النحوَ اليوناني والمنطق اليوناني فيتأثروا بهما ؟

اما النحو اليوناني فلم يستطع النحاة القدامى ان يعرفوه بطريقة مباشرة ، اذ انهم كانوا يجهلون اللغة اليونانية ، ولم يكن لديهم كتاب في النحو اليوناني مترجَم الى اللغة العربية ، فلم يستطيعوا اذن ان يعرفوا النحو اليوناني الا بواسطة النحو السرياني . فعلينا

ان نبحث عن العلاقات الموجودة بين النحو السرياني والنحو اليوناني من جهة ، والنحو العربي من جهة اخرى .

كان النظام النحويّ السريانيّ مرتكزا على الاقاويل الخمسة التي مَيَّزها منطق ارسطو في الكلام ؛ وهي حسبما قال ايليا بن شينايا : السؤال، والامر، والدعاء، والتعجب، والنداء .

فاخترَعَ النحاة السريان نظام النُقَط ، يعني نظام العلامات التي تقابلُ في الكتابة الاشارات الدالّة على تلك الاقاويل في المشافهة . ثم يرتكز هذا النحو على القواعد الصوتية والصرفية التي اقتبسها السريان من كتابٍ في النحوِ اليوناني كان قد تُرْجِم الى السريانية .

اما النحاة السريان فنقتصر على ذكر اشهرهم، وهم ثلاثة :

في القرن السابع : الاسقف يعقوب الرهاوي ، الذي صَنَّف الكتاب الاول في النحو السرياني ،

في القرن التاسع : المترجِم المعروف حنين بن اسحاق ، الذي الَّف كتابا في النحو سماه « كتاب النُقَط » ،

في القرن الحادي عشر : ايليا بن شينايا ، مطران نصيبين ، الذي صَنَّف كتابا صغيرا في النحو .

اما تعليم النحو السرياني فكان منتشرا في اديرة السريان ومدارسهم ، كمدرسة دير قنى المشهورة ، بالقرب من المدائن ، وكالمدارس العديدة التي كانت موجودة في الحيرة عاصمة العباد ، بالقرب من الكوفة . غير اننا لا نجد اي دليل في المصادر السريانية ، ولا في المصادر العربية ، على أن النحاة العرب القدامى قد اتصلوا بالنحاة السريان ، او تَعَلَّموا اللغة السريانية .

وفضلا عن ذلك ، كان النحاة السريان انفسهم يَعتبرون أن النحو العربي يَختلف عن النحو اليوناني من جهة ، وعن النحو السرياني من جهة اخرى ، اختلافا تاما . ومما يدل على ذلك أن

حنينا بن اسحاق ألّف كتابا في النحو العربي ، على المنهاج اليوناني ، سمّاه « كتاب احكام الإعراب على مذهب اليونانيين ».وقد ذكر الخوارزمي فصلا صغيرا منه في كتاب مفاتيح العلوم . وصنّف حنين كتابا آخر في النحو العربي ، زعم فيه ، حسبما روى عنه ايليا بن شينايا : « ان العرب ليس لهم نحو يُعرفون به المعاني الغامضة كما للسريانيين"، ويستدل من قوله ان نحو العرب غير كاف ولا مقنع لما يحتاج اليه » .

أما ايليا بن شينايا فأفرد مجلسا من المجالس التي جَرت بينه وبين الوزير الحسين بن علي المغربي ، بمقارنةٍ نفيسة بين النحو العربي والنحو السرياني ، يوضح فيها الفرق بين النظامين ، كما يدلّ على ذلك الحوار التالي بين الرجلين :

« قال الوزير : اترفعون الفاعل وتنصبون المفعول كما تفعل العرب ؟ قلت : لا .

قال : فكيف تعرفون الفاعل من المفعول ؟ قلت : يُدخل السريان على المفعول حرف اللام ليُفرِّق بينه وبين فاعله ؛ ولما كان العرب انما يرفعون الفاعل وينصبون المفعول ، ليفرّقوا بينهما،وكان للسريان علامة تَدُلّهم على الفرق بين الفاعل والمفعول هي ابين من الرفع والنصب ، ما احتاجوا أن يرفعوا الفاعل وينصبوا المفعول كما تفعل العرب » .

فيدلّ كلُّ ذلك على ان النحو اليوناني لم يستطع ان يؤثر على النحو العربي بواسطة النحو السرياني ؛ وبعكس ذلك ، في القرن الحادي عشر ، نرى ايليا مطران طيرهان يصنّف كتابا في النحو السرياني يُدخِل فيه النظام العربي ؛ فالنحو العربي هو الذي اثر في النحو السرياني .

أما المنطق اليوناني فلم يستطع النحاة القدامى ان يعرفوه في القرن الثاني للهجرة،الثامن للميلاد ، اذ ان تآليف ارسطو لم تنقل

بعد الى اللغة العربية ؛ فاننا نعلم أن الكتاب في العبارة والكتاب في المقولات لم يُترجَما الا في القرن الثالث للهجرة ، التاسع للميلاد ، على يد حنين بن اسحاق ؛ كما نعلم أن الكتاب في الشعر لم يُترجَم الا في القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد ، على يد مَتّى بن يونس .

واذا اطّلعنا على هذه الترجمات لاحظنا أن المترجِمَ السرياني لم يَستَعمِل مصطلحات النحو العربي ليترجِمَ مصطلحات النحو اليوناني، ولكنه اخترع مصطلحات عربية جديدة .

فانه ترجم اللفظة stoikeion بأسطقس ، ولم يترجمها بحرف ، وترجم اللفظة syndesmos برباط ، ولم يترجمها بحرف ، وترجم اللفظة rhema بكلمة ، ولم يترجمها بفعل ، وترجم اللفظة klisis بميل ، ولم يترجمها بإعراب ، وترجم اللفظة phone بمصوّت ، ولم يترجمها بحركة .

وفي القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد ، نرى الفلاسفة العرب يخترعون مصطلحات جديدة ، ليُفسّروا كتب المنطق اليوناني في اللغة العربية . فان الفيلسوف المنطقيّ الكبير ، أبا نصر الفارابي ، يقول في كتاب الالفاظ المستعملة في المنطق ، بصدد حروف المعاني :

« ان هذه الحروف هي أصناف كثيرة ، غير أن العادة لم تَجْرِ في أصحاب علم النحو العربي الى زماننا هذا ، بأن يُفْرِد لكل صنف منها اسمٌ يَخُصُّه ؛ فينبغي أن نستعمل في تعديد أصنافها الاسامي التي تأدت الينا عن أهل العلم بالنحو من أهل اللسان اليوناني ، فانهم أفردوا كلّ صنف منها باسم خاص » . فاخترع الفارابي خمسة مصطلحات ليدلّ على هذه الاصناف من حروف المعاني ، وهي : الخوالف، والواصلات، والواسطات، والحواشي، والروابط .

وفي نفس الحقبة ، يروي لنا الفيلسوف أبو حيّان التوحيدي ، في كتاب الامتاع والمؤانسة ، مناظرة مشهورة جرت بين متّى بن يونس المنطقي وأبي سعيد السيرافي النحوي ؛ فمما يبيّن ان

متّى كان يعتبر أن المنطق ليست لـه صلة بالنحو ؛ الحوار التالي بين العالمين :

« قال أبو سعيد : أسألك عن معاني حرف واحد، وهو دائر في كلام العرب، وهو الواو ، ما أحكامه، وكيف مواقعه، وهل هو على وجه أو وجوه ؟ فبهت متى وقال : هذا نحو، والنحو لم أنظر فيه ، لانه لا حاجة بالمنطقي اليه ، وبالنحوي حاجة شديدة الى المنطق ، لان المنطق يبحث عن المعنى، والنحو يبحث عن اللفظ » .

فيدلّ كلّ ذلك على ان المنطقيين السريان والفلاسفة العرب كانوا يشعرون بأن النحو العربي لا يتعلق بالمنطق البتّة .

فمن الناحية التاريخية ، يظهر لنا انه من المستحيل أن يكون النحاة العرب القدامى قد عرفوا النحو اليوناني والمنطق اليوناني فتأثروا بهما في نظامهم .

* * *

ينبغي لنا اخيرا ، أن نتساءل، هل كان من الضروري ، من الناحية المنهاجية ، أن يكون النحاة العرب القدامى قد اقتبسوا بضعة مصطلحات من النحو اليوناني ؟

فاذا اطلعنا على كتاب سيبويه ، لاحظنا ان لغته غنيّة جدًّا ، لانه يستعمل عددا وافرا من المفردات ليعرض نظامه النحوي . ولكنّنا لم نكن نعلم بالضبط مبلغ هذا العدد ؛ فعزمتُ أن أُحصي جميع المفردات التي استعملها سيبويه في لغته الشخصية دون لغة الشواهد القرآنية والشعرية ، فوجدت أن عددها يبلغ : ألفا وثمانمئة وعشرين .

ما هي المعلومات التي نستطيع أن نستنتجها من هذا الاحصاء ؟

اذا ضربنا صفحا عن المفردات المستعملة في معناها العام ، بدون معنى اصطلاحي ، وعددها مئتان وعشرون فقط ، استطعنا أن نُميِّز في الكتاب خمسة أنواع من المفردات :

اولا : المفـــردات التي تتعلّق بالمفاهيـــم النحوية العامة ، يعني : بأقســام الكلام وانـــواع الالفاظ واحوالهـــا .

ثانيا : المفـــردات التي تختص بتركيب الجُمَـــل ، يعني بمواضع الالفاظ في الكـــلام ومجراها من ناحية العمـــل .

ثالثا : المفـــردات التي تتعلق بالتصريـــف ، يعني بتغيير الالفـــاظ في اللغـــة وصياغتها بالاشتقـــاق .

رابعا : المفـــردات التي تختص بالصوتيـــة ، يعني باخـــراج الاصوات ومجراهـــا في بنيـــة الالفاظ .

خامسا : المفـــردات التي تتعلق بالمنهـــاج ، يعني بالمفاهيم التي يستعملها سيبويـــه ليفسّر الوقائع النحويـــة والوسائل التي يستعملها ليوضحهـــا .

امـــا توزيع تلك المفردات العددي ، فـــانّ المفردات التي تتعلّق بالمنهـــاج هي الأكثر ، وعددها ستمئـــة وخمسون ، ثـــم تتبعها المفردات التي تختص بالمفاهيـــم العامة ، وعددها ثلاثمئـــة وتسعون ، ثـــم المفردات المتعلقة بالتصريف والتـــي تساوي المفردات المتعلقـــة بالصوتية ، وعددها ثلاثمئـــة وعشرون ، واخيرا المفـــردات التي تختص بالتركيب ، وعددها مئتـــان وخمسون .

فمن البـــيّن انّ عددًا وافرًا من المصطلحات النحويـــة كان تحت تصرف النحاة العـــرب القدامى ؛ فمن المستحيـــل أن يكونوا قد احتاجوا الى اقتباس بضعةٍ مـــن المصطلحات الأجنبية ، يونانيةً كانت أم سريانية ؛ فما تعني تلـــك العَشَرة من المصطلحات التي يزعـــم المستشرقون ان النحاة العرب قـــد اقتبسوها من اللغـــة اليونانية ؟ ما تعنـــي تلك العَشَرة بالنسبة الى المئـــات والمئـــات من المصطلحات التي كانـــت متداولةً في لغتهـــم ؟

اظـــنُّ ان المستشرقين قـــد اخطأوا عندما اعتمدوا على بضعة مـــن مصطلحاتٍ يونانيـــة ليبرهنوا على مضارعـــة النظام العربي

النظام اليوناني . لانَّ كلّ واحد من المصطلحات جزء من نظام معقّد ، ليس له معنى ، خارجا عن هذا النظام .

* * *

لقد بيّنّا انه من المستحيل ان يكون النحو العربي القديم قد اقتبس مصطلحاتٍ من النحو اليوناني ، وذلك من جميع النواحي : من الناحية اللسانية ، ومن الناحية اللغوية ، ومن الناحية التاريخية ، ومن الناحية المنهاجية . غير انه تَبقَّى علينا الاجابة على هذا السؤال : كيف نشأت هذه المصطلحات التي نرى سيبويه يستعملها في كتابه ؟

اذا فحصنا الكتابَ وجدنا ان سيبويه لم يُحدِّد المصطلحات التي يستعملها ؛ فهذا يدلّ على انه لم يَخْلِق مصطلحات جديدة ، وانه يستعمل تلك التي استعملها قَبْلَه النُحاة القُدامى الذين يذكرهم في الكتاب ؛ كما يدلّ ذلك على ان معاصريه كانوا يفهمون تلك المصطلحات بدون صعوبة وبدون تفسير ؛ لماذا ؟

لانه من المحتمل ان سيبويه استعمل المصطلحات المشتركة بين العلوم الاسلامية الأُصليّة التي هي : القراءات،والحديث،والفقه، والنحو . وقد تكوّنت تلك المصطلحاتُ في وقت واحد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، الثامن للميلاد ، في مِصْرَي العراق المسلِمَين ، البَصرة والكوفة ، فكان القُرّاء والمحدّثون والفقهاء والنحاة يستعملون نفس المنهاج ونفس المفاهيم ونفس المصطلحات ، لانهم كانوا يقصدون الى نفس الهدف الذي هو سلامة لغة التنزيل الإلٰهي والحديث النبوي .

ويُمْكِننا القول إن النحو ، منذ بدايته ، كان مرتبطا بالحديث والفقه ، اذ ان كتب اخبار النحويين تروي لنا عن نصر بن عاصم الليثي ، وهو أول من وضع العربية بعد ابي الاسود ، انه كان فقيها عالما بالعربية والحديث ، كما انها تروي لنا عن يحيى بن يعمر ؛

وهو أول مَن نَقَّـط المصاحف ، انـه كان ايضا فقيها عالمـا بالعربية والحديـث .

فكان العلماء ، في غالـب الاحيان ، يتلقّون جميـع العلوم الاسلامية قبل ان يتخصّصوا في واحـد منها . فنعلم مثلا أن النحـوي المشهور الخليل بن احمـد ، وهو واحـد من اساتذة سيبويه ، قبل أن ينصرف الى النحو ، تَعلَّم الحديث والفقـه عن ايوب السختياني ، الـذي كان فقيهـا من فقهاء البصرة ومحدّثـًا من محدّثيها .

وكذلك ، نعلـم ان سيبويه قَدِمَ البصرة ليكتـب الحديث ، فلزم حلقة حماد بـن سلمة ؛ ويروى عنه انـه بينما كان يستملي على حماد قول النبي صلى اللـه عليه وسلم : « ليس من أصحابـي الا من لو شئت لأخذت عليه ليس ابـا الدرداء » فقال سيبويه : « ليس أبو الدرداء » وظَنَّه اسم ليس ، فقـال حماد ، لَحنتَ يـا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت ، وانمـا « ليس » ههنـا استثناء ؛ فقال سيبويه : سأطلـب علمـا لا تلحنني فيه ؛ فلـزم الخليل فبرع .

وكذلـك ، يُرْوَى عن حمـاد بن سلمة انه كان يقول : « من لحـن في حديثي فقـد كذب » ؛ فَتَدُلُّنا هذه الروايـة على العلاقات الوثيقة التي كانت تربـط الحديث بالنحـو .

وكـان العلماء القدامى يُعتبرون ان النحـو اول العلوم الاسلامية واسبقها ، فكانـوا يفضّلونه على العلوم الاخـرى ؛ وذلك لان النحوَ العلمُ الاساسي الـذي يحتاج اليه جميع العلوم ، والـذي لا يستغني عنـه عالـم .

فَيُرْوَى عن ايـوب السختياني انـه قال : « تَعلَّموا النحو فانه جمال للوضيع وَتُرْكُـه هجنة للشريف » ، كما يُروَى ايضا عن حمـاد بـن سلمة انه قال : « مَثَلُ الذي يطلب الحديـث ولا يعرف النحـو ، مَثَلُ الحمار عليـه مِخلاةٌ لا شعير فيهـا » .

وفي الختام ، فانا أعتقد ان علـم النحو أعربُ العلوم الاسـلامية ، وابعدُها عن التأثير الأجنبي في طـوره الأول ، كمـا حاولتُ ان أُبيِّن ذلك في ضوء كتـاب سيبويه ، ذلك الكتاب المشهـور الذي هو اقدم كتـب العـرب في النحـو .